لغز النجمة الخضراء



محمود سالم

لغز النجمة الخضراء

تأليف
محمود سالم



لغز النجمة الخضراء

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٥٥٠ ٠

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

القصة كاملة

كانت «لوزة» كالعادة أكثر المغامرين تحمُّسًا للبقاء في الكيلو ١٠١ من الساحل الشمالي الغربي — العجمي — برغم المَخاوف والمَحاذير. فعندما حضر المُغامرون الخمسة والكلب «زنجر» مع صديقهم «نبيل» لقضاء إجازةٍ مُمتعةٍ بين البحر والرمال، حدثت ثلاث مُفاجآتٍ مُفزعةٍ: الأولى اختفاء «عم سالم» حارس الفيلا، والثانية اختفاء «زنجر»، والثالثة اختفاء «لوزة»، واستطاع الأصدقاء بمُساعدة «زنجر» الذي عاد وحده أن يصلوا إلى مكان «لوزة» في بئرٍ غريبةٍ تمتلئ بماء البحر من بابٍ صغير، وأنقذوها ثم أنقذوا «عم سالم» الحارس العجوز ... وهكذا كان من الممكن أن تنتهي المغامرة، ولا داعيَ لأن يزجَّ المغامرون بأنفسهم في متاعبَ لا دخل لهم فيها، ولكن بمشاعر المغامرة الكامنة في أعماقهم كانوا جميعًا ميَّالين إلى البقاء وبحث كلِّ شيءٍ.

وكان «نبيل» قد حكى لهم عن قصة السفينة «النجمة الخضراء» التي غرقت منذ زمنٍ بعيدٍ في المياه أمام الميناء الصغير عند الكيلو ١٠١ في طريق العجمي ... لقد كانت تحمل ثروةً من الذهب والمُجوهرات، وقد حاول «نبيل» العثور على السفينة بدون جدوى، في حين يقول «عم سالم» إن هناك عصابة تحاول العثور على السفينة.

قالت «نوسة»: أليس من الأفضل أن نسمع القصة من «عم سالم» نفسه ... لعل هناك تفاصيل لا يعرفها أو لا يذكرها «نبيل» ... يمكن أن توضِّح لنا هل نمضي في البحث أو ننسى المسألة؟

وافق الأصدقاء على هذا الاقتراح ... وسرعان ما ذهب «نبيل» ودخل الفيلا، وعاد بعد قليلٍ بصحبة «عم سالم» ... العَجوز، وهو يَحمل إبريقًا قديمًا مملوءًا بالشاي، وفي اليد الأخرى مجموعة من الأكواب الصغيرة، وجلس الجميع على الشاطئ يَستمعُون إلى «عم سالم» ... وهو يَحكي التفاصيل المُثيرة لحادث غرق الباخرة «النجمة الخضراء».

وأخذ «عم سالم» رشفةً من كوب الشاي، ثم قال: عندما بدأت نُذُر الحرب العالمية الثانية في الأفق، وبَدَا واضحًا أن العالم مُقْبلٌ على حربٍ مُدمِّرةٍ بين ألمانيا من ناحية، والحلفاء من ناحية أخرى؛ فقد قرَّر المرحوم جدُّ الأستاذ «نبيل» أن يُصفِّي أعماله في البحر، وهكذا باع سُفنَه كلها، واحتفظ بواحدةٍ منها فقط، هي الباخرة «النجمة الخضراء»، وقد كانت سفينةً جميلة لا مثيلَ لها ... لقد عشتُ حياتي كلها في البحر منذ كنتُ طفلًا صغيرًا، وأستطيع أن أقول إنني لم أرَ سفينة في قوتها وجمالها، لقد صُنِعتْ في إنجلترا بمُواصفاتٍ خاصة!

وتنَهَّدَ «عم سالم»، وعاد يقول: وخوفًا من انهيار أسعار العملات الأجنبية في أثناء الحرب — وهذا ما حدثَ بعد ذلك فعلًا — فقد اشترى جدُّ «نبيل» بالجزء الأكبر من ثروته كميةً من الذهب والمُجوهَرات من فرنسا، وضَعها في صندوق على السفينة «النجمة الخضراء»، وبقيَ هو في فرنسا لتصفية بقية أعماله، وقبل إبحار السفينة بيومٍ واحدٍ مرض قُبطانها المصري المرحوم «طه» ونُقل إلى المستشفى لإجراء عمليةٍ جراحيةٍ عاجلة، وهكذا اضطُررنا إلى البحث عن قبطانٍ آخر، ووجدنا قبطانًا فرنسيًّا يُدعى «روجيه»، ومن النظرة الأولى له لم أحبَّه، كانت تبدو عليه علامات الدهاء والخسَّة، بعكس أكثر العاملين في البحر، فهم على درجةٍ كبيرةٍ من الطيبة والكرم ... إنَّ البحر هو المدرسة الأولى في تَعَلُّم الكرم والسماحة ... ولكن لم يكن «روجيه» كذلك.

وأقلعت السفينة في يومٍ عاصفٍ من ميناء «طولون» متجهةً إلى الإسكندرية، كان أكثر بحَّارتها من المصريين ... ولكن ضابط السفينة الثاني كان إيطاليًّا يُدعى «كوتزيني»، وكان هناك عددٌ من البحَّارة من جنسياتٍ مختلفة.

محب: هل كانت سفينة كبيرة؟

تَنهَّد «عم سالم» العجوز وقال: نعم كانت حمولتها أربعة آلاف طن، وفي ذلك التاريخ — من أربعين عامًا — كانت هذه تُعَدُّ حمولةً ضخمة ... وسارت الأمور على ما يُرَام حتى لاحتْ شواطئ الإسكندرية في الأُفق، وبَدَا لي أن تحركات القبطان والضابط الثاني في السفينة ليست طبيعيةً ... فهناك أشياء تُنقل بدون سببٍ، والسفينة تُبطئ حركتها قُرب الشاطئ المصري بدون سببٍ ... وقابلت الضابط الثاني «كوتزيني» وتحدَّثت معه، وإذا به يحتدُّ جدًّا، ويغضب بدون سببٍ واضحٍ ... ثم زاد على ذلك شيئًا أخطر، أنه أمرَ بحبسي بتُهمة التمرد!

وصمت «عم سالم» وسَرَحَ بعيدًا، ثم عاد يقول: كان إجراءً خَطيرًا ليس له ما يُبرره، ولكن عدم الطاعة على السفن يمكن أن يُحطِّم حياة البحَّار ... وهكذا نُفِّذت التعليمات، وعندما جاء الليل سمعت حركة غير عاديةٍ على ظهر السفينة، ثم زادت حركتها أيضًا بشكلٍ غير طبيعيٍّ، وأخذت أفكر فيما يَحدُث، وفيما أفعل، وقُرب منتصَف الليل استطعت أن أُحدِّد مكان السفينة، كنَّا قد اقتربنا من شاطئ الإسكندرية تمامًا، وأحسستُ بسعادةٍ لأنَّ الرحلة انتهت، وبعد أن ترسو السفينة في الميناء يكون كل شيءٍ على ما يُرام.

كان الجميع يستمعون في اهتمامٍ وتشوُّقٍ إلى النهاية، وقد كانت نهايةً مُحزِنة كما كانوا يعرفون، وقال «عم سالم»: وفجأةً دَوَّى انفجارٌ ضخمٌ في قلب السفينة ... واهتزَّت السفينة بسرعةٍ، ومالتْ على جانبها الأيمن، وأخذتُ أجري كالمَجنون، لم أصدِّق ما حدث إلا بعد أن حاصرَتْني المياه وكدتُ أغرق ... ولكني استطعت النجاة بمُعجزةٍ، وأخذت أعوم بسرعةٍ أنا وعدد من زملائي، حتى وصلت إلى الشاطئ ... ثم شاهدت اللهب وقد ارتفع من السفينة الغارقة، وشاهدتها وهي تغوص في قاع البحر، وتبتلعها المياه.

وأشار «عم سالم» إلى مسافة من الشاطئ وقال: وعلى بُعْد نحو ثلاثة كيلومترات تلاشت السفينة «النجمة الخضراء» ونجا بعض بحَّارتها وغرق بعضهم، وعندما جاءت لجنة التحقيق أثبتت أن من بين الغرقى القبطان، والضابط الثاني!

ومضى «عم سالم» يقول: وبدأت الحرب العالمية الثانية في اليوم التالي، ونسي الناس سريعًا حكاية السفينة «النجمة الخضراء»، فقد اقتربت الحرب من مصر، بل إن القوات الألمانية لم تكن تبعُد عن المكان الذي نجلس فيه الآن إلا بأقل من مائتي كيلومتر، وأخذت الطائرات تقوم بالغارات الجوية على الإسكندرية كلَّ يومٍ، وهاجر أهلها إلى مدنٍ أخرى، ولكن كل هذا لم يشغلْني عن «النجمة الخضراء»، لم أكن مُقتنعًا أن الانفجار الذي وقع فيها تمَّ قَضَاءً وقَدرًا، ولم أكن مقتنعًا بوفاة القبطان «روجيه» والضابط الثاني «كوتزيني».

زاد انتباه المغامرين للقصة وقالت «لوزة»: ماذا تصوَّرت إذن يا «عم سالم»؟

ردَّ الرجل العجوز: إنَّ غرق سفينةٍ جديدة أمرٌ بعيد الاحتمال جدًّا، خاصَّة في بحر هادئٍ مثل البحر المتوسِّط، وانفجارها أمرٌ لا يُمكن تصديقه؛ لأن آلاتها جديدة ... والشيء الوحيد المُمكن هو أن تكون قد انفجرت بفعل فاعلٍ، وقد كان ضبَّاطُها وبحَّارتها المصريون جميعًا يُحبون صاحب السفينة، ولا يمكن أن يُقْدِموا على مثل هذا العمل الخطير المؤلم.

نوسة: أنت إذن تتَّهم «روجيه» و«كوتزيني»؟

عم سالم: نعم.

نوسة: وتقول إنهما لم يَغرقا؟

عم سالم: نعم.

نوسة: ولماذا أغرقا السفينة؟

عم سالم: ليستوليا على كنز المجوهرات والذهب.

نوسة: هل أخذا الكنز معهما قبل أن تغرق السفينة، وهربا به؟

عم سالم: هذا ممكنٌ عن طريق أحد قوارب الإنقاذ.

نوسة: في هذه الحالة فإن العمليات المريبة التي تتمُّ هنا في هذا المكان، وخطفك، ومحاولة التخلص منك، وحكاية البئر القديمة … كل هذا لا علاقة له بموضوع الكنز!

عم سالم: إذا كان الرجلان قد سرقا الكنز من البداية، فمِن المؤكَّد أن ما يحدث هنا ليس له علاقةٌ بـ «النجمة الخضراء» وصندوق الكنز الذي كان بها!

نوسة: إذن لماذا تَربط بين غرق «النجمة الخضراء» وما يحدث هنا من تحركاتٍ مريبةٍ؟

عم سالم: هذا ما يُحيِّرني، لماذا يوجد غرباء في هذا المكان؟! إنهم يَتردَّدون على هذا المكان منذ نهاية الحرب عام ١٩٤٥، لا بدَّ أن هناك شيئًا هامًّا يدفعهم إلى هذا المكان، وهو الشيء الوحيد الذي يَجذبُهم إلى هذه الصحراء، ولكن ما هو هذا الشيء؟

مفاجأة اليوم الثاني

ساد الصمت بعد هذا البيان الذي قدَّمه «عم سالم» عن غرق السفينة «النجمة الخضراء»، وكان كل المغامرين و«نبيل» يعيدون النظر في حكاية الكنز ... هل سرقه «روجيه» و«كوتزيني» أو غرق مع السفينة؟ وكان الاحتمال الثاني أقوى؛ فهو الاحتمال الذي يُفسِّر الحركات المريبة في المنطقة، وهكذا تحدَّث «تختخ» قائلًا: إنني أتصوَّر أن «روجيه» و«كوتزيني» لم يتمكَّنا من سرقة الكنز، ربما كان توقيت الانفجار أسبق من السرقة، ربما وهما يحملان صندوق الكنز حدث الانفجار!

عاطف: أكثر من هذا ... ربما تركا الكنز يغرق مع السفينة على أن ينتشلاه بعد ذلك ... ولكن الحرب قامت، واستمرَّت ست سنوات، وعندما عادا للحث عنه لم يجداه لسببٍ أو لآخر، ربما عثر عليه آخرون، وربما تحرَّك من مكانه بفعل حركة البحر ... هناك احتمالاتٌ كثيرةٌ!

لوزة: إذن أمام هذه الاحتمالات كلها عندنا لغزٌ خطيرٌ، لا يحلُّه إلا الإجابة عن عدة أسئلة ... هل ما زال القبطان «روجيه» حيًّا أو مات؟ هل الضابط الثاني مشتركٌ معه أو لا؟ هل الكنز ما زال مستقرًّا في قاع البحر، أو تمَّ انتشاله؟ وإذا كان قد تمَّ انتشاله فلماذا الغرباء في هذا المكان؟ إنَّ سؤالًا واحدًا من هذه الأسئلة يمكن أن يكون لغزًا ممتازًا.

عاطف: ولكن المسألة ليست البحث عن لغزٍ بأيِّ ثمنٍ ... إننا نتعامل مع أشخاصٍ خطرين، لقد خطفوا «عم سالم»، وكان من المُمكن أن يقضُوا عليه.

لوزة: إن هذا لن يُخيفنا.

ضحك «محب» بالرغم منه، فهذه التي تتحدَّث عن المواجهة مع هؤلاء الرجال الخطرين طفلةٌ لا يتعدَّى عمرها أحدَ عشر عامًا!

واحمرَّ وجه «لوزة» وقالت: هل تسخر منِّي يا «محب»؟

ردَّ «محب» على الفور: على العكس ... إنني معجبٌ بشجاعتك!

تدخَّل «تختخ» قائلًا: لا داعي لإثارة متاعب ... علينا أن نُقرِّر بالتصويت إذا كنا سنَبقى أم لا ... المُوافق يرفع يده!

وكانت المفاجأة ... لقد ارتفعت كلُّ الأيدي ... وهكذا تقرَّر أن تبدأ المغامرة ...

وجلس الجميع يتحدَّثون عَمَّا يجب عمله، وطال الحديث، وتقرَّر أن يُعقد اجتماعٌ بعد الظهر لوضع خطةٍ، وانطلق الجميع يلعبون، في حين قام «نبيل» بارتداء ملابس الغوص ... وبدأ يُجرِّب الملابس الجديدة، وهو يحمل بندقية صيدٍ تحت الماء ذات حربةٍ زرقاء لامعة، أمَّا «تختخ» فقد كان يحسُّ أنهم تورَّطوا، وكان إحساسه بالمسئولية ناشئًا من أنه أكبر المغامرين سنًّا، ولذا طلب من «عم سالم» أن يسيرا معًا على الشاطئ ... إنَّه يُريد مزيدًا من المعلومات، وهكذا قال لـ «عم سالم»: ما رأيك؟ أريد أن أقترب من المكان الذي غرقت فيه السفينة!

ورحَّب «عم سالم»، إنَّه على استعداد لمساعدة أي شخصٍ يُمكِّنه من معرفة مصير الكنز الذي ضاع، وهكذا سارا معًا، وأخذ «عم سالم» يشرح لـ «تختخ» قصة هذا الشاطئ، وكيف جاءه طفلًا صغيرًا وأحبَّه، وكيف عاد إليه بعد أن غرقت أمامه السفينة «النجمة الخضراء».

سارا نحو نصف ساعةٍ في اتجاه الغرب حتى اقتربا من نهاية حبل الرمال، وتوقَّف «عم سالم» وقال: من الخطر التقدم بعد ذلك، إنها منطقة رمالٍ هشَّة تحتها عشرات الآبار، ثم تليها الصخور، ولهذا لا يمكن الوصول إلى داخل المنطقة إلا من البحر!

ثم أشار «عم سالم» إلى مسافةٍ في البحر وقال: هل ترى طيور «النورس» البيضاء التي تُحلِّق هناك؟

ردَّ «تختخ»: نعم.

عم سالم: في هذا المكان تقريبًا غرقت السفينة، ولو كنتَ ممَّنْ يعرفون أسرار البحر للفت نظرك أن المياه في هذه المنطقة لونها أكثر سوادًا من بقية البحر!

تختخ: هذا صحيحٌ!

عم سالم: إنَّ هذا دليلٌ على وجود منطقةٍ عميقةٍ من المياه، أكثر عمقًا مما حولها، ويمكن أن يكون دليلًا على وجود جسمٍ على أرض البحر؛ جسمٌ ضخمٌ مثل سفينة.

تختخ: تقصد «النجمة الخضراء»!

عم سالم: نعم.

تختخ: لماذا لم تبحَث أنت على الكنز يا «عم سالم»؟

عم سالم: لقد حاولتُ، ولكنها ليست مهمَّة رجلٍ واحدٍ، كما أن المكان عميقٌ، ويحتاج إلى ملابس للغوص، وأنا رجلٌ فقيرٌ لا أستطيع شراءها، وقد تَقدَّم بي العمر، وقد طلبت المساعدة من الكثيرين، ولكنَّ أحدًا منهم لم يأخذ المسألة مأخذ الجد، لهذا اعتقدوا أنني عجوزٌ مُخرِّف!

تختخ: إننا في حاجةٍ إلى قارب يوصلنا إلى المكان ... لعل «نبيل» يستطيع بملابس الغوص الجديدة أن ينزل، ويرى السفينة عن قرب.

عم سالم: إنها مسألةٌ خطيرةٌ!

تختخ: إنَّ الموقف كله خطيرٌ، ولكن إذا شئنا أن نفعل شيئًا له قيمة فلا بد من مواجهة الخطر.

عم سالم: هناك قاربٌ قديمٌ، أحد قوارب الإنقاذ التي كانت على السفينة، إنه قديمٌ وقد طمرته الرمال، ولكن من المُمكن بمساعدتكم أن نُصلحه.

تختخ: عظيم!

عم سالم: وقد احتفظتُ بالمجاديف عندي، إنها فوق سطح الفيلا!

تختخ: وأين القارب؟

عم سالم: لقد أخفيته تحت الرمال، وخلف الأعشاب حتى لا يراه أحد، كان عندي الأمل أن أستخدمه يومًا، وكنت قد فقدتُ هذا الأمل، ولكن ها أنت ذا قد أعدتَ الأمل إلى الحياة.

وأشار «عم سالم» إلى تلٍّ من الرمال قريب من الشاطئ تُغطِّيه غابة من البوص والأعشاب العالية، واتجها إليه، ومدَّ «عم سالم» يده، وأخذ يُزيل الرمال من مكانٍ معينٍ ... ولم تمضِ دقائق حتى ظهرت مقدمة القارب، وأسرع «تختخ» يُشارك «عم سالم» في العمل ... انهمكا فيه تمامًا، وأخذت معالم القارب تظهر شيئًا فشيئًا.

التفتَ بقية المغامرين إلى حيث كان «عم سالم» و«تختخ» يُزيلان الرمال والأعشاب، وأسرعوا جميعًا إليهما ... خُيِّلَ لهم للحظات أنهما يبحثان عن الكنز في هذا المكان، بل إنَّ «لوزة» بطبعها المُتسرِّع قالت: لقد كان «عم سالم» يخفي الكنز في هذا المكان، أخشى أن تكون المغامرة قد انتهت.

ولكن الحقيقة تَكشَّفت بسرعةٍ، وانهمك الجميع في إزالة الرمال والأعشاب من القارب الذي كان في حالةٍ جيدةٍ ... ولكن كان في حاجةٍ إلى إصلاحات كثيرة.

قال «نبيل»: عندي أدوات نجارةٍ كاملةٍ.

تختخ: أسرع إذن بإحضارها.

وانطلق «نبيل» ومعه «محب» إلى الفيلا، وعادا بعد فترةٍ ومعهما صندوق يحوي فعلًا أدوات نجارةٍ كاملة، وكمية من المسامير ... وبعد أن تمكَّن الجميع من إخراج القارب كله من مخبئه تعاونوا على زحزحته إلى قرب الشاطئ، وأخذوا يَغسلونه بماء البحر، ثم بدأت عملية الإصلاح والترميم.

قال «تختخ» فجأةً: اقترب مَوعِد الغداء، ولم نُعدَّ شيئًا نأكله!

وعلَّق «عاطف» ضاحكًا: أليس هناك شيءٌ يشغلك من خواء بطنك؟

تختخ: إذا تَحدَّثتِ البطونُ سَكَنتِ العقولُ.

نوسة: لقد اصطدنا قدرًا لا بأس به من السمك ... هل نعدُّ لكم غداءً منه؟

تختخ: أرجوك!

أسرعت «نوسة» و«لوزة» إلى الفيلا، وعندما اقتربتا منها فوجئتا بوجود رجلٍ غريب الهيئة، تبدو عليه علامات الصَّرامة والجد ... توقفَتا قبل الوصول إلى هناك، ولكن الرجل أشار إليهما أن تَتقدَّما ... وتقدَّمتا وقد تَوجَّسَتَا شرًّا ... ولكن الرجل قال برفقٍ: هل أنتما هنا وحدكما؟

لوزة: لا ... معنا إخوتنا وأصدقاؤنا!

الرجل: أرجو أن ترحلُوا جميعًا من هنا!

أصابت الدهشة «لوزة» و«نوسة» ووقفتا مَشْدُوهَتَينِ، ولكن الرجل قال: يمكن أن تعودوا بعد ذلك، ولكن هذه المنطقة ستُصبح ساحةً للقتال خلال الساعات القادمة!

ساحة قتال؟ شيءٌ غريبٌ ... هكذا فكَّرتِ المُغامِرتان الصغيرتان ... أيُّ قتالٍ؟ وبين مَنْ؟ وكيف يَحْدُثُ؟

الأحداث تتلاحق

كان الرجل كأنما يقرأ أفكارهما فقال: اسمي «أحمد»، وأنا ضابطٌ من خفر السواحل، وعندنا معلوماتٌ عن عمليةٍ معيَّنةٍ ستتمُّ في هذه المنطقة، وآسف أنني لا أستطيع أن أقول لكما ماذا سيحدث بالضبط؟ ولكن من الأفضل لكم أن تكونوا بعيدين عمَّا سيدور!

نوسة: ولكن ليس لنا مكانٌ نذهب إليه ... إننا من القاهرة وقد جئنا لقضاء إجازة في هذا المكان، والسيارة التي حملتنا إلى هنا قد عادت إلى القاهرة!

فكَّر الضابط لحظاتٍ ثم قال: إذن في هذه الحالة عليكم أن تلزموا الفيلا، ولا تغادروها أبدًا — خاصة في الليل — إنكم قد تتعرَّضون للموت إذا خرج أحدكم!

نوسة: إننا نعدُك بذلك!

الضابط: وسيكون بعض رجالنا قريبِين من هذا المكان، فإذا حدث شيءٌ ...

ثم فكَّر لحظاتٍ وقال: سأعود بعد لحظاتٍ.

وخرج ثم عاد بعد لحظات ومعه جهازٌ صغيرٌ من أجهزة «الوكي توكي» وقال لنوسة: هل تَعرفين كيفية استعمال هذا الجهاز؟

نوسة: أستطيع أن أتعلَّم.

أخذ الضابط يشرح «لنوسة» كيفية استعمال الجهاز ... الضغط على هذا المفتاح، ثم الاستماع، ثم ترك المفتاح والتحدث، ثم قال: المسألة بسيطةٌ كما ترَين! ثم أضاف: إذا شاهدتم أضواءً مريبةً تصدر من الشاطئ، أو أحسستم بشيءٍ غير عاديٍّ يحدث حولكم، فعليكم باستخدام الجهاز ... وسأكون أنا، أو بعض رجالي قريبِين منكم!

نوسة: شكرًا ... ألا نُعِدُّ لك كوبًا من الشاي؟

قال الضابط مبتسمًا: شكرًا لكما، إنني مُضطرٌّ للانصراف.

انهمكتِ الصديقتان في إعداد السمك، ومرَّت ساعتان، كان الطعام خلالهما قد أُعِدَّ … وقالت «لوزة»: ماذا يُمكن أن يحدث في هذا المكان؟

نوسة: لقد فكرت في نفس السؤال، وأعتقد أنها عملية تهريبٍ كبيرة تتمُّ على الشاطئ؛ ففي الفترة الأخيرة ركَّز مُهرِّبو المخدرات نشاطهم على الشاطئ الشمالي الغربي، حيث يجلبون شحنات المخدرات بواسطة قوارب إلى الشاطئ، ثم يُخفون المخدرات تحت الرمال، ويتركونها حتى يحين أوانُ نقلها!

لوزة: ورجال خفر السواحل يتصدُّون لهم؟

نوسة: نعم … وهناك طريقة أخرى يُسمُّونها طريقة «التصبير» ومعناها وضع المخدرات في صفائح، وإلقاؤها في البحر، وربط كل صفيحةٍ بحبلٍ طويلٍ تنتهي بقطعةٍ من «الفلين» أو «بالونة» من البلاستيك تعوم قرب سطح الماء بحيث لا تظهر على السطح، ثم يعود المُهرِّبون في وقتٍ مناسبٍ؛ لانتشال الصفائح بواسطة هذه الحبال!

لوزة: يَا لهم من مجرمين!

نوسة: إنهم يَلجئون لكل الطرق لتهريب هذه السموم إلى بلادنا العزيزة؛ لتحطيم قدرتنا على العمل وجنْي الأرباح الطائلة … ليتنا نشترك في القبض عليهم!

ظهر أول المغامرين … كان «تختخ» بالطبع؛ فقد كان جوعه، وحبُّه للطعام لا يساويه إلا حبه للمغامرات والألغاز.

صاحت «لوزة»: سوف نشترك في القتال!

بدت الحيرة على وجه «تختخ» وقال: هل ستنقلب المنطقة إلى ساحة قتالٍ؟

لوزة: نعم.

قالت «نوسة» معاتبةً: المسألة ليست هكذا بالضبط؟

وشرحت «نوسة» لـ «تختخ» ما جرى …

وقال «تختخ» معلقًا: إذن سوف نَلزم أماكننا هذه الليلة.

نوسة: تمامًا.

وظهر بقية المغامرين … وبعدهم «عم سالم»، وسرعان ما وُضع الطعام، وانهمك الجميع في الأكل وهم يتحدَّثون، وقال «عم سالم» بعد أن سمع قصة الضابط: لقد تكررت المحاولات في السنين الماضية، عشرات العمليات، وكانت المنطقة تتحوَّل حقًّا إلى ساحة قتالٍ حقيقيةٍ، فهؤلاء المهرِّبون يحملون أسلحةً فتَّاكةً حديثة؛ من رشاشات وبنادق وغيرها.

كان الغداء المتأخِّر، والتعب من لعب النهار، والعمل في القارب، من الأسباب التي دعت الجميع إلى الإخلاد للراحة، وهكذا سكنَت الفيلا تمامًا، حتى هبط المساء.

كانت «لوزة» هي أول مَن استيقظ، وكان الظلام يَشمل الفيلا فشعرتْ بقدرٍ من الرهبة، وأسرعت إلى مفتاح الموتور فأدارته، وسرعان ما أتى الضوء بالاطمئنان … وعلى صوت المُحرِّك استيقظ بقية الأصدقاء، وأسرع «محب» يُعدُّ الشاي للجميع، فليس هناك خروج هذا المساء، وعليهم أن يقضوا وقتًا مرحًا، وهكذا وضع بجوار الشاي أوراق الكوتشينة، واستعدَّ هو والزملاء لقضاء ليلةٍ هادئةٍ، ولكن أحلامهم تبددتْ، فمن إحدى النوافذ المفتوحة على الصالة، اندفع حجرٌ متوسط الحجم كالقذيفة، وارتطم بأحد المقاعد ثم سقط على الأرض.

والتفت الجميع إلى الحجر … ظنوا أوَّلًا أنه مجرَّد حجرٍ ألقاه شخصٌ عابثٌ، ولكن في هذه المنطقة الموحشة والبعيدة عن العمران ليس من السهل وجود شخصٍ بهذه الصفة، والحقيقة أنه لم يكن مجرد حجرٍ، فقد كانت هناك ورقةٌ ملفوفةٌ بعناية عليه، ومربوطةٌ بقطعةٍ من الدوبارة.

اندفع الحجر إلى الداخل، واندفع «زنجر» إلى الخارج، تمَّ ذلك كله في ثوانٍ قليلةٍ، لم تترك فرصة للمغامرين بمنع «زنجر» من الخروج، وعندما أفاقوا من دهشتهم لكلِّ ما حدَث سمعوا صوت زمجرةٍ تصدر من بعيدٍ، ثم نباحًا متصلًا، ثم عواءً مُؤلِمًا … واندفع «محب» خارجًا وتبعه «نبيل»، في حين أمسك «تختخ» بالحجر، وأخذ يفكُّ الرباط بسرعةٍ … كانت الورقة عليها كتابة باللغة الفرنسية … ولم يكن «تختخ» يُجيدها تمامًا، فناول الورقة إلى «نوسة» ثم خرج هو الآخر من الباب، وأخذ يجري إلى حيث كان «زنجر» يَعْوِي مُتألِّمًا.

على ضوء القمر البعيد، شاهد «تختخ» شبحًا يَجري، وشاهد ظلَّي «محب» و«نبيل» وهما يسرعان خلفه، وكان «زنجر» قد أقعى على الأرض، وأخذ ينبح متألمًا … صاح «تختخ»: عُدْ يا «نبيل»، عُدْ يا «محب»!

كان يخشى أن يجرهما الرجل إلى حبل الرمال، ثم يتمكَّن مع بعض زملائه من أَسْر الصديقين، أو إصابتهما، أو حتى قتلهما … واستمع «محب» و«نبيل» إلى نداء «تختخ»، وتوقَّفا عن متابعة الرجل … وأسرعا إلى «زنجر»، كان الكلب الأسود قد أُصيب بضربةٍ قاسيةٍ أسالت الدماء من أنفه وفمه، وبَدَا حزينًا ومُتوتِّرًا، وعندما انحنى «تختخ» ليرى ما به لاحظ أنه يرفع قدمه اليسرى أيضًا، لقد أُصِيبَ بضربةٍ قويةٍ عليها … وحمله «تختخ» وثورة الغضب تهبُّ في نفسه … إنَّ الاعتداء على «زنجر» هو أكثر من اعتداء عليه، وأحسَّ برغبة الانتقام تثور في نفسه؛ ولكنه في نفس الوقت كان يعلم يقينًا ألَّا فائدة من محاولة متابعة ذلك المجهول، فمن الممكن الاشتباك في معركةٍ خاسرةٍ.

عادوا إلى «الفيلا»، وكانت الرسالة في يد «نوسة» وقد ترجمتها في ذهنها، فلما دخلوا قال «تختخ»: ماذا في الرسالة يا «نوسة»؟

قرأتْ نوسة بصوتٍ مُتهدِّجٍ: إننا نرصُد كل تحرُّكاتكم، ونحن ننصحكم بالابتعاد عن هذا المكان فورًا؛ إنَّ بقاءكم فيه يُعرِّضكم لخطرٍ جسيمٍ، ونحن نحذِّركم من الحديث إلى أي شخصٍ عمَّا شاهدتموه في هذا المكان — خاصَّة البئر — وسوف نُوقِّع عليكم عقوبةً قاسيةً إذا عرفنا أنكم استعنتم بأي شخصٍ للوصول إلينا، وإذا ابتعدتم فنحن على استعدادٍ؛ لندفع لكم مبلغًا سخيًّا من المال، ولا تنسوا أن تأخذوا الرجل العجوز معكم، وانصحُوه بالصمتِ حتى لا تنتهي حياته نهايةً محزنة (ولم يكن هناك شيء آخر).

على شعاع صغير

كانت الرسالة إنذارًا واضحًا، وبينما انهمك «تختخ» و«نوسة» في غسل جروح «زنجر» أخذ الجميع يفكرون في محتوى هذه الرسالة، وماذا يفعلون؟! إنَّ الإنذار واضحٌ، وواضح أيضًا أن مُرسلَه قادرٌ على أن يوقع بهم العقاب اللازم إذا لم يستمعوا إلى أوامره ... فماذا يفعلون؟ ثم هناك هذه المعركة التي ستنشب في أي وقتٍ بين رجال خفر السواحل، ومهربي المخدرات، إنها خطرٌ وشيكٌ، قد يضر بهم! وهم وحدهم بعيدون عن العمران، ولا اتصال بينهم وبين العالم.

لحُسنِ الحظ لم تكن جراح «زنجر» خطيرةً، وربما يُشْفَى خلال أيام؛ ولكن غير القابل للشفاء هو غضب «تختخ» لإصابة كلبه العزيز، ولم يكن بقية المغامرين أقلَّ غضبًا، وهكذا قال «تختخ» فجأة: إنني سأبقى ... ومَنْ يُرِدْ منكم العودة فَلْيَعُد ... إنَّ السيارة ستمرُّ بنا غدًا كما هو مُعتاد!

صاح الجميع في نَفَسٍ واحدٍ تقريبًا: بل سنَبقى معك!

تختخ: إنني لا أدري ماذا سيفعلون، ولكن يجب أن نستعدَّ للدفاع عن أنفسنا، علينا أن نُغلق الأبواب والنوافذ جيدًا، علينا أن نضَع حراسة طول الوقت ليلًا.

قالت «نوسة»: ما رأيك في استخدام جهاز «الوكي توكي» ... إنَّ في إمكاننا استدعاء رجال خفر السواحل في أية لحظة!

ابتسم الجميع في هذه اللحظة، نعم ... إنَّ معهم سلاحًا فعَّالًا قد يُنقذهم إذا وقعوا في مأزقٍ!

قال «تختخ»: عظيم ... ولكن برغم هذا يجب قيام نوبات الحراسة باستمرار ... من الأفضل أن نستعدَّ ثم نتصل بالضابط «أحمد» عند الحاجة من أن نقع في أيديهم ثم نحاول الاتصال، سوف أسهر مع «زنجر» حتى الساعة الثالثة صباحًا، ثم أوقظ «محب»؛

ليقوم بنوبة الحراسة حتى الثامنة صباحًا، وستكون الشمس قد أشرقت، ولا أظن أنهم سيهاجمون في وضح النهار، وغدًا نتبادل جميعًا نوبات الحراسة.

قال «عم سالم»: سأكون معكم ... إنني رجلٌ عجوزٌ؛ والعجوز لا يحتاج إلى وقتٍ طويلٍ للنوم!

تختخ: سيكون «عم سالم» معنا.

نبيل: أرجو ألا تكونُوا قد نسيتموني.

تختخ: طبعًا لا ... ولا بدَّ أن تُجهِّز أسلحتك!

نبيل: إنَّ عندي ثلاث بنادق للصيد تحت الماء، وفي كلٍّ منها حربةٌ قوية، ومنها واحدة بها ثلاث حِراب، وهي سلاحٌ فعَّال وقويٌّ تحت الماء وفي الهواء، وسأُعدُّها جميعًا للإطلاق إذا دعت الحاجة، وهي ليست محتاجةً إلى أي تمرينٍ، فبمجرد الضغط على الزناد ستنطلق الحربة.

تختخ: لقد أصبحنا على استعدادٍ تقريبًا لمواجهتهم.

عَمَّتْ موجة من الابتهاج بين الأصدقاء، وسرعان ما أعادوا تسخين الشاي، ثم بدءوا يلعبون معًا بـ «الكوتشينة»، وارتفعت أصواتهم وهم يتبارون، وكان أحسنُهم في اللعب هو «عاطف» الذي استطاع أن يَكسب بالاشتراك مع «نوسة» كل الأشواط. وعندما اقتربت الساعة من الحادية عشرة، أسرعوا جميعًا إلى أَسِرَّتهم، واستسلموا للنوم، وقد شعروا بقدرٍ كبيرٍ من الاطمئنان.

وجلس «تختخ» في الصالة، وقد استسلم «زنجر» للنوم بعد وجبة عشاء ساخنةٍ، وبعد أن لفَّه «تختخ» في غطاءٍ ثقيلٍ حتى يتدفَّأ وينام.

جلس «تختخ» محاولًا الاستمرار في اليقظة، وكان ذهنه يعمل طوال الوقت، يُفكِّر في كل ما مرَّ به، ويحاول ربط الخيوط واستنتاج الحقيقة ... إن عدم وجود الكنز حتى الآن شيءٌ مدهشٌ ... فإذا كان ما قاله «عم سالم» صحيحًا من أن القبطان «روجيه» قد نسَف السفينة لسرقة الكنز بدون أن يكتشف أحد فعلته، فكيف لم يعثر على الكنز حتى الآن؟ ... هل استطاعت المياه جرف السفينة بعيدًا؟ ... هل اختفى الكنز تحت ركام السفينة ومن الصعب إخراجه؟! أو أن حكاية الكنز هي من اختراع الرجل العجوز؟ ولكن لماذا إذن يوجد هؤلاء الناس في هذا المكان المُوحش؟ وهل معهم تصاريح للبقاء في هذا المكان من الجهات الحكومية؟

أخذت الخواطر تلحُّ على ذهن «تختخ» وهو يُغالب النوم، وفي يده بندقية الصيد تحت الماء جاهزة للإطلاق، وسمع «زنجر» يزوم وهو يخرج من تحت غطائه الثقيل، ثم وقف

شعر الكلب الأسود علامة التحفُّز، وأسرع إلى الباب كأنما يقول لـ «تختخ» أن يفتحه، ولم يتردَّد «تختخ»، وأسرع يفتح الباب، ووقف لحظات يُحدِّق في الظلام المخيف تحت ضوء القمر الخافت. وفي البداية لم يشاهد شيئًا؛ ولكن بعد أن أمعن النظر في الظلام استطاع أن يرى شبحًا يَبتعد عن الفيلا مُسرعًا في اتجاه الشاطئ، وخرج «تختخ» متسلِّلًا وهو يضع يده على رأس «زنجر» حتى لا ينبح، وفهم الكلب الذكي ما هو مطلوب منه، فأخلد إلى الصمت ... ومشيا معًا، وكان الشبح يُسْرع إلى حيث القارب الذي أخرجه الأصدقاء من تحت الرمال، وعندما وصل إليه توقَّف، ثم مدَّ يده بزجاجة وأخذ يُفرغ ما بها على القارب، وعرف «تختخ» على الفور ماذا يفعل الشبح؟! إنَّه يضع البنزين أو البترول على القارب ليشعله، إنه يريد أن يحرق القارب، ويحرق معه الأمل في أن يصلوا إلى السفينة الغارقة. وانتهى الرجل من سكب ما في الزجاجة، وبدأ يستعدُّ لإشعال النار، وفي هذه اللحظة أحكم «تختخ» التصويب ثم أطلق الحربة، التي طارت في الهواء، واصطدمت بذراع الرجل، وصاح الرجل في فزعٍ، ثم أطلق لساقيه العنان، وأخذ يجري كالمجنون في اتجاه حبل الرمال.

أسرع «تختخ» إلى القارب، كانت رائحة البنزين تملأ الجو، وأمسك «تختخ» بصفيحةٍ فارغةٍ، وأخذ يملأ من ماء البحر، ويلقي على القارب، إنه يَعرف أن البنزين سريع الاشتعال، وأي شيءٍ مشتعلٍ أو حتى شديد السخونة بجواره قد يشعله.

استمر «تختخ» يعمل بنشاطٍ حتى قضى تمامًا على رائحة البنزين وآثاره، ثم جلس يستريح على الرمال، ونظر إلى ساعته ذات الواجهة الفسفورية فوجدها الثالثة وبضع دقائق، لقد انتهت نوبته وعليه أن يُوقظ «محب»؛ ليتسلَّم نوبته مكانه.

عاد إلى الفيلا فوجد «محب» يستعدُّ للخروج للبحث عنه، لقد استيقظ وحده كأنه يملك ساعة خاصةً في داخله توقظه في الوقت المناسب، هكذا كان «محب» دائمًا إذا ارتبط بموعدٍ هامٍّ ونام فإنه يستيقظ في الموعد تمامًا.

صاح «محب»: هل كنتَ تقوم بجولةٍ؟

تختخ: أبدًا ... كنتُ أنقذ آمالنا من الحريق!

محب: يَا لكَ من شاعرٍ ... إنَّ هذا التعبير أشبه بجزءٍ من قصيدة شعرية!

تختخ: هذه هي الحقيقة ... لقد كنت أنقذ قاربنا من الاحتراق ... لقد بدءوا الحرب ضدَّنا.

محب: إنهم حتى لم يتركوا لنا فرصةً للتفكير أو التصرف.

تختخ: المسألة واضحةٌ، إنهم وراء ثروةٍ ضخمة، والمسألة مسألة حياة أو موت، وعلينا أن نصمد ... كُنْ يقظًا.

ودخل «تختخ» إلى غرفته، وبقي «محب» جالسًا وحده يُحدِّق من خلال زجاج النافذة إلى الصحراء والبحر ... وأخذ «زنجر» يهومُ لحظات ثم استسلم هو أيضًا للنوم ... وبعد ساعةٍ بدأ الفجر يلوح في الأفق، ثم اصطبغت السماء بلون الشمس الحمراء، وأحسَّ «محب» ببعض الاطمئنان، وقرَّر أن يتجوَّل على شاطئ البحر، وخرج خلفه «زنجر» وسارا حتى اقتربا من القارب، وأخذ «محب» يدور حول القارب لحظات، كانت هناك ترميمات ما زالت مطلوبة، خاصة مع وجود ثقبٍ في مؤخِّرة القارب ممكن أن تتسرب منه المياه.

قرَّر «محب» أن يرى الثقب من داخل القارب؛ ليرى مدى اتساعه وعمقه من الداخل، وقفز إلى القارب، وأخذ يزحف على بطنه حتى رأى شعاع الضوء المتسرب من الثقب ... كان الثقب في حاجةٍ إلى ترميمٍ كبيرٍ ... وعندما استدار ليخرج، وفي اتجاه الضوء الداخل من الثقب، لاحظ وجود صندوقٍ صغيرٍ من الحديد مُثَبَّت في الركن الأقصى من القارب بحيث لا يراه أحد، تردَّد لحظات، ولكن في النهاية استجاب لإغراء المغامرة والمعرفة، ومدَّ يده إلى الصندوق وحاول انتزاعه.

كان الصندوق مُثَبَّتًا إلى جدار القارب بمسامير قويةٍ من الصعب انتزاعه منها، فدار «محب» بأصابعه حول الصندوق، ووجد أن له غطاءً صغيرًا مُغلقًا بقفلٍ صغير، وحاوَل انتزاع القفل، ولكنه كان قويًّا برغم الصدأ. وأحسَّ «محب» أنه مُقبلٌ على اكتشافٍ هامٍّ، ولكن ما هو هذا الاكتشاف؟

رسالة من تحت الماء

برغم قِدَم الصندوق الصغير فإن محاولات «محب» لانتزاعه لم تنجح، وكان عليه أن يعود إلى الفيلا لإحضار بعض الأدوات لفكِّ المسامير، أو فتح القفل، وهكذا أسرع عائدًا ... ووجد «نوسة» و«لوزة» قد استيقظتا، فروى لهما ما حدث ... وزادتْ بهذا شهية المغامَرة عند الجميع؛ فصندوقٌ حديديٌّ مُغلقٌ في قارب للإنقاذ معناه سرٌّ ... وقد كان حقًّا سرًّا خطيرًا يُساوي الملايين!

عاد الثلاثة إلى القارب، بعد أن شربوا الشاي، وأخذوا معهم أدوات النجارة، ودخل «محب» إلى مقدمة القارب، وأخذ يفكُّ المسامير الصدئة التي كانت تُثبِّت الصندوق على الخشب، واقتضى منه هذا المجهود نصف ساعةٍ، ولكنه في النهاية خرج إلى «نوسة» و«لوزة» وبيده الصندوق ...

قالت «نوسة»: من الأفضل أَلَّا نَفتحه حتى يستيقظ بقية المغامرين!

كانت «لوزة» متلهفةً؛ لترى ما في الصندوق، لقد كان ثقيلًا، فهل يُمكن أن يكون به الكنز الذي يبحث عنه الجميع، لو حدث هذا لكانت ضربة حظٍّ موفقة!

وعادوا جميعًا إلى الفيلا، وكانت الساعة قد أشرفتْ على السادسة، ولم يكن أحد قد استيقظ بعد إلَّا «عم سالم» العجوز الذي كان يقوم بكنس الفيلا، وبرغم اعتراض الثلاثة على هذا فإنَّ «عم سالم» قال: إنني أعتبر تنظيف الفيلا رياضة، فأنا رجلٌ عجوز لم أَعُد أستطيع بذل جهدٍ كبيرٍ؛ فعلى الأقل أقوم بهذه الرياضة البسيطة.

وعندما رأى الصندوق في يد «محب» بدت عليه الدهشة الشديدة وقال: هذا الصندوق ليس غريبًا عليَّ ... نعم ... لقد كان البحَّارة قديمًا قبل اختراع البلاستيك يحملون مثل هذا الصندوق لوضع أشيائهم فيه، وهذا الصندوق من صناديق بحَّارة «النجمة الخضراء»!

محب: لقد وجدتُه بالمصادفة في قارب الإنقاذ.

عم سالم: مُدهشٌ جدًّا ... كيف لم تجرفه مياه البحر؟ وكيف لم أره؟
محب: لقد كان مُثَبَّتًا بالمسامير في خشب القارب.
لوزة: افْتَحْه يا محب.

كان الإغراء قويًّا، فأمسك «محب» بشاكوش وضرب القفل ضربةً واحدةً أطارته من مكانه، فقد كان الصدأ ينتشر عليه، وفتح «محب» الصندوق، والجميع ينظرون إليه في أملٍ ولهفةٍ.

في داخل الصندوق كانت هناك حزمةٌ مُستطيلةٌ، مغطَّاة بالمطاط ومربوطة بالأسلاك ... وبرغم مضي السنوات فقد كانت الحزمة سليمة، وأخذ «محب» الحزمة بحذرٍ شديدٍ، ووجد بعد غطاء المطاط لفَّة من الورق السميك، وفتح لفَّة الورق، وكانت في انتظارهم جميعًا مفاجأة محزنة، لم يكن في اللفة مجوهرات، ولا ذهب، لا شيء له علاقة بالكنز، كان الموجود بعض أشياء متناثرةٍ هي:

- كمية من النقود من العملات المختلفة.
- مجموعة صور لأسرة؛ الزوجة والزوج والأولاد.
- ساعة جيب.
- جواز سفر.
- ولاعةٌ قديمة من النوع الذي يشتعل بالبنزين.
- مصحفٌ صغيرٌ مغلَّف بالجلد.
- ورقة مطوية.

وضع «محب» كلَّ هذه الأشياء على المائدة، لقد كان الصندوق الحديديُّ أملًا كبيرًا، ولكن ما به بَدَّدَ هذا الأمل، ولكن «لوزة» بطموحها الذي لا يهدأ في كشف الألغاز وحلِّ الأسرار، قالت: إننا لم نقرأ الورقة ... لعلَّ بها شيئًا مهمًّا.

وفتح «محب» الورقة المطوية، كانت في شكل خطابٍ مكتوبٍ بسرعةٍ وبخطٍّ رديءٍ، ولكن المفاجأة أنه كان مهمًّا جدًّا.

وهكذا كانت الرسالة التي قرأها «محب» بصوتٍ مرتفعٍ:

> إلى مَن يعثر على هذه الرسالة، أرجو أن يحمل هذه الأشياء إلى أسرتي، وأنا أسكن في ٣٨ شارع حجر النواتية بالإسكندرية حيث تُقيم أسرتي الصغيرة،

ويُبلِّغ سلامي إلى زوجتي الحبيبة التي كانت نِعْمَ الزوجة، وإلى أولادي: فاطمة ومحمد وإبراهيم.

إنني أكتبُ هذه الرسالة، وأنا أعرف أنَّ حياتي على وشك أن تنتهي، وليس في إمكاني عمل شيءٍ ... لقد كنتُ الحارس المكلَّف بحراسة صندوق الذهب في السفينة، وقد سار كل شيءٍ على ما يُرَام حتى اقتربنا من شاطئ الإسكندرية، لقد كنتُ ذاهبًا لزيارة القبطان «روجيه»، وبالمصادفة سمعتُه يتحدَّث مع الضابط «كوتزيني» وشخص ثالث لم أره، وبرغم أنني لا أُجيد اللغات الأجنبية فإنَّ سفري الكثير علَّمني عددًا من الكلمات يكفي للفهم.

لقد وجدتهم يتحدَّثون عن سرقة صندوق الذهب، واستخدام أحد قوارب الإنقاذ في الهرب بعد وضع عبوةٍ ناسفةٍ في السفينة تكفي لإغراقها، وفهمتُ أن العبوة قد أُعِدَّتْ للانفجار بعد نصف ساعة، فأسرعتُ إلى صندوق الذهب، وأخرجت كل ما به، ووضعتُ مكانه بعض قطع الحديد وأغلقتُه وتركتُه، ثم وضعتُ الذهب وما معه من مجوهرات في صندوقٍ آخر، وأسرعت أكتب هذه السطور، وسوف أستخدم أحد قوارب الإنقاذ في الهرب من السفينة ومعي صندوق الذهب لأُسلِّمَه إلى صاحبه، وقد قدَّرت أنني ربما لا أستطيع الوصول إلى الشاطئ فكتبت هذه الرسالة، ومَنْ يعثر عليها سيعرف أن صندوق الذهب لن يكون في السفينة، ولن يكون مع اللصوص «روجيه» وشريكَيه، بل سيكون قد غرق معي، وسوف أضع هذه الرسالة، وكل حاجاتي الشخصية في صندوق البحارة، ثم أضعه في أحد قوارب الإنقاذ؛ قارب آخر غير الذي سأستخدمه، حتى تكون هناك فرصتان بدلًا من فرصةٍ واحدةٍ، لمعرفة مصير صندوق الذهب ... وإلى الله أُسَلِّمُ أمري.

البحار حسني أبو السعود

صاح «عم سالم» عند سماع هذا الاسم: حسني أبو السعود! إنني أعرفه؛ فأنا الذي رشَّحتُه للعمل على السفينة «النجمة الخضراء»، لقد كان رجلًا ممتازًا!

محب: إنَّ هذه الرسالة تعني شيئًا واحدًا، وهو أن صندوق الكنز لم يكن في السفينة «النجمة الخضراء» عندما غرقتْ، وأن الذين يبحثون عن الكنز فيها لن يصلوا إلى شيءٍ!

لوزة: وأين الكنزُ إذن؟

محب: من الممكن استنتاج أن الكنز قد غرق مع البحار «حسني»، ولعل السفينة عندما انفجرتْ أغرقت قوارب الإنقاذ التي كانت عليها أو قريبة منها ... فكما تقول الرسالة إنه لم يكن أمام «حسني» إلا نصف ساعة لتغيير عبوة الصندوق وكتابة الرسالة، فلما قفز إلى القارب وحاول الابتعاد انفجرتِ العبوة الناسفة، وغرق القارب، ومعه البحَّار الأمين الشجاع.

قال «عم سالم»: إنني أذكر هذا الشاب جيدًا، ولا أدري لماذا لم يتَّصل بي عندما عَلِمَ بكل هذا؟

محب: ربما ارتبك، وربما كان الوقت ضَيِّقًا. على كلِّ حالٍ هذا ما حدثَ، ونحن نعرف الآن أن الذين يبحثون عن الكنز في السفينة لن يعثروا عليه، وأن فرصتنا في العثور عليه أكبر.

لوزة: يجب أن نوقظ بقية الأصدقاء ... إنَّ ما عثر عليه «محب» مُهمٌّ جدًّا، وقد يُغيِّر خططنا كلها.

وأسرعت «لوزة» لإيقاظ المغامرين، ولكن «محب» قال: لا تُوقظي «تختخ»، لقد سهر كثيرًا، ومن حقه أن ينام بما يكفي لراحته.

بعد لحظاتٍ كانت صالة الفيلا تضمُّ الأصدقاء جميعًا عدا «تختخ»، وأخذ «محب» يروي لـ «نوسة» و«عاطف» و«نبيل» ما حدث ... وكان «نبيل» شديد الانفعال، وهو يستمع إلى هذه الأنباء، فهذا يعني أن كنز أسرتِه المفقود سيَعثُرون عليه.

ولكن هل يمكن بعد كل هذه السنوات أن يعثروا حقًّا على الكنز؟ وهل يُمكن تحديد مكانه بسرعةٍ، أو يحتاجون إلى وقتٍ طويلٍ؟ وما هو موقف هؤلاء الأغراب إذا شاهدوهم يغوصون في الماء من أجل الكنز؟

كان «نبيل» يفكر، وهو يستمع إلى تفاصيل ما حدثَ ... وبدأ حوارٌ بين الجميع حول ما يجب عمله، وكان الرأي الغالب هو الاستعانة بأشخاصٍ مُحترِفين للعثور على الكنز، ولكن «نبيل» كان متحمِّسًا جدًّا للعثور على كنز أجداده الراقد في قاع البحر، لهذا قال: سأبدأ المحاولة بنفسي، فإذا فشلت فسوف أبلغ أبي بهذه المعلومات؛ ليتصرَّف كما يرى.

وأسرع «نبيل» إلى ملابس الغوص التي اشتراها له والده كهديةٍ، أسرع يرتديها ... ثم ذهب الجميع إلى الشاطئ، واشتركوا في حمل القارب إلى المياه، وركب «محب» و«نوسة» مع «نبيل» ... في حين بقي «عم سالم» و«لوزة» على الشاطئ ينظرون إلى الثلاثة، وهم يُجدِّفون مبتعدين إلى المكان الذي حدَّدوه لاحتمال وجود الكنز فيه تحت مياه البحر.

مأزق خطير!

كان الوقت مبكرًا عندما أخذ القارب يشقُّ طريقه على صفحة الماء، وتحدَّث «نبيل» قائلًا: إذا كان البحَّار «حسني» قد غرق بفعل العبوة التي نسفت السفينة، فمعنى ذلك أنه لم يذهب بعيدًا عنها … ربما أقل من مائة متر.

نوسة: هذا يعني أننا نَحتاج إلى وقتٍ طويلٍ للوصول إلى المكان.

نبيل: نحو ربع ساعة.

ومضى القارب يشقُّ طريقه بين الأمواج، وعلى الشاطئ رفع «عم سالم» رأسه إلى فوق ومضى ينظر، ثم نظر إلى الأُفق، وقال محذِّرًا: يبدو أن هناك عاصفة على وشك الهبوب … إنَّ الريح تتحدث!

أُعجبتْ «لوزة» بهذا التعبير — الريح تتحدَّث — فقالت تسأله: هل تَتحدَّث الرياح؟

عم سالم: بالطبع … إنها فصيحةٌ جدًّا!

لوزة: هل تُعلِّمني لغة الرياح؟

عم سالم: إنها لغة صعبةٌ، وتحتاج إلى وقتٍ طويل؛ ولكن من الممكن أن أُعلِّمك بعض مُفرداتها … هناك رياحٌ صريحة تهبُّ من اتجاهٍ واحد، وهذه يُمكن فهمها ببساطة، ولها علاماتٌ؛ فالرياح الغربية باردةٌ عمومًا، في حين أنَّ الرياح التي تأتي من الشرق دافئةٌ، وهناك رياح «مشكلة»؛ أي تأتي من اتجاهات مُختلفةٍ في وقتٍ واحدٍ، وهذه لا يمكن فهمها إلا بالمران، وهناك رياحٌ جافَّة، ورياح مُحمَّلَة بالبُخار أو الرطوبة، وهناك رياحٌ هادئةٌ كالنَّسيم، وهناك رياح قوية كالثورة …

كانت لوزة تستمع باهتمامٍ واستمتاعٍ إلى صوت الرجل العجوز الذي مضى يقول: يقولون إنَّ هناك كتبًا عن الرياح!

لوزة: نعم ... علمُ الجغرافيا يدرس الرياح؛ كيف تهبُّ؟ ونوعها، واتجاهاتها الموسمية والتجارية وغيرها من الاصطلاحات. ولكن لا أظن أن هناك كتبًا قُرِّرت عن لغة الرياح، فهذه لغةٌ خاصة يفهمها البحَّارة.

عم سالم: وكذلك الطيور؛ فإن نظرتِ إلى طيور البحر فستَجدين أنها تتصرَّف كأنها تسمع لغة الريح وتفهمها.

لوزة: من المؤكد أنها تَفهم، فحياتها كلها في قلب الريح!

ابتعد القارب، وعاد الاثنان إلى الفيلا فوجدا «تختخ» قد استيقظ، وقد جلس في الصالة يقضم «ساندوتشًا»، ويشرب كوبًا من الشاي ... وأخذت «لوزة» تروي له في لهفةٍ وسرعةٍ الأحداث التي مرت وهو نائمٌ: العثور على الخطاب في القارب، ماذا كان في الصندوق الحديدي، احتمال وجود الكنز في مكانٍ بعيد عن السفينة، مغامرة الثلاثة الذين ركبوا القارب وذهبوا يبحثون عن الكنز.

كفَّ «تختخ» عن الطعام ... كانت كمية المعلومات كبيرةً وكأنها وقفتْ في حَلْقِه، وبعد لحظاتٍ قال: لماذا لم تُوقظوني؟

لوزة: لقد رفض «محب» ذلك، وقال إنك سهرتَ طويلًا، ويجب أن تنام!

تختخ: ولكن هذه المعلومات على جانبٍ كبير من الأهمية ... متى يعودون؟

لوزة: لا أدري ... ولكن ليس قبل الغداء على كل حالٍ، إنَّ «نبيل» متحمسٌ جدًّا، وهو يظن أنه سيتمكن من العثور على الكنز قبل الرجال المجهولين الذين يبحثون عنه.

تختخ: لا أظن ... إن المياه عميقةٌ ... وستكون رمال القاع قد طمَرتِ الصندوق!

لوزة: إن ثياب الغوص الجديدة ستُساعده على البقاء تحت الماء فترة طويلة، وقد يستطيع العثور عليه!

التفت «تختخ» إلى «عم سالم»: ما رأيك يا «عم سالم»؟

عم سالم: إنني أوافقك في أنه من الصعب أن يعثر «نبيل» على الصندوق بعد أربعين عامًا، صحيح أن الصندوق ثقيلٌ، وأنه لم يَبعُد عن مكانه، ولكن من المؤكد أن الرمال قد غطَّته.

أخذت الريح تهبُّ شيئًا فشيئًا، وتشتدُّ شيئًا فشيئًا، ومضى «عم سالم» إلى نافذة الفيلا، ونظر إلى الخارج ثم قال: من الأفضل أن يعودوا الآن ... إنَّ الريح تُوشك أن تتحوَّل إلى عاصفةٍ!

خرج الثلاثةُ ووقفوا أمام الفيلا ينظرون إلى البحر ... كان القارب يبدو كنقطةٍ سوداء بعيدة، وقد بدأت الأمواج ترتفع، والأفق يتحول إلى لون التراب.

قال تختخ: يجب أن نُناديَهم.

وأسرع بإحضار فوطة بيضاء من الداخل، ثم سار الثلاثة مسرعين إلى الشاطئ، ووقف «تختخ» يُلوِّح بالفوطة البيضاء لهم، ولكن فاتَ الأوانُ؛ فقد أخذت الريح تلعب بالقارب، وعلى ظهره كانت «نوسة» تتحدث إلى «محب»: لماذا غاب «نبيل» إلى هذا الحد؟

كان «نبيل» قد قفز إلى الماء ثلاث مراتٍ، وفي المرة الأخيرة تأخَّر كثيرًا ... وقال «محب»: لعله عثر على الصندوق.

نوسة: إنَّ الموقف سيُصبِح حَرِجًا بعد قليلٍ؛ الريح تشتدُّ، وسيكون من الصعب التجديف.

وأخذت الأمواج تضرب القارب بشدةٍ، و«محب» يحاول بواسطة المجاديف أن يُبقيه في مكانه حتى لا يبتعد عن مكان «نبيل» ... ولكن الرياح أخذت تلعب بالقارب، وأصبحت السيطرة عليه أكثر صعوبةٍ، و«نبيل» لا يظهر!

وأحسَّت «نوسة» بالخطر ...

وعلى الشاطئ كان القلقُ قد اشتدَّ بـ «تختخ» و«لوزة» و«عم سالم»، وفجأةً قالت «لوزة»: أين «عاطف» و«زنجر»؟

كانت الملاحَظة في موضعها ... فمنذ أكثر من ساعتين، ومنذ استيقظ «عاطف» وسمع قصة الصندوق والرسالة اختفى بطريقةٍ غامضةٍ هو و«زنجر» ... وفي غمرة الحماس والانفعال ... لم يلتفت أحد إليهما.

أخذت الرياح تلعب بالقارب بشدةٍ، وأحسَّ «محب» أنه سيفقد السيطرة على القارب تمامًا، خاصة أنَّ الحبال التي كانت تربط المجاديف حبالٌ قديمة، يمكن أن تنقطع عند أول ضغطٍ عليها، وأخذ ينظر إلى المياه كأنه يريد أن يَنفذ ببصره إلى قاع البحر وينادي «نبيل» ... ونظر إلى «نوسة» فوجدها تنظر إليه، وقد بَدا القلقُ واضحًا على وجهها ... وصاحت تقول له: ماذا سنفعل؟

محب: ليس أمامنا إلا الانتظار.

وجاءت موجةٌ عاليةٌ وضربت القارب فدار في موضعِه بشدةٍ، وعندما حاول «محب» أن يُبقيه في مكانه حدث ما كان يخشاه، وانقطَع حبل المجداف الأيسر، ودار القارب دورةً عنيفةً، ثم أخذ يبتعد من مكانه ... وفي هذه اللحظة ظهر «نبيل»، ولكنه كان بعيدًا عن القارب ببضعة أمتارٍ، وأخذ يُشير إليهما ليَقتربا منه، ولكن كان ذلك مستحيلًا، لقد أصبح القارب تحت رحمة الهواء والمياه، وأخذ يبتعد في اتجاه داخل البحر حسب قوة التيار ... وعبثًا حاول «نبيل» اللحاق به.

على الشاطئ كان «تختخ» و«لوزة» و«عم سالم» يَرقُبون هذا المشهد من بعيدٍ وقد استولى عليهم الذعرُ … وبلا انتظارٍ خلع الرجل العجوز ثيابه ثم ألقى بنفسه في الماء، كان يعرف أن التيار يمكن أن يحمل القارب بعيدًا جدًّا داخل البحر، وربما يُغرقه، وبروح البحَّار أخذ يعوم — برغم كبر سِنِّه — مندفعًا إلى قلب البحر. اسْوَدَّ الأفق تمامًا، وزَمْجَرَت العاصفة، وانقلب البحر إلى وحشٍ هائجٍ، وبدا «تختخ» و«لوزة» في وسط هذا المشهد الطبيعي المخيف مخلوقَين ضعيفين لا حَوْلَ لهما ولا قوة.

كان قلب «تختخ» يرتجف … فهذه ليست أول مرةٍ يواجه فيها الخطر، ولكن هذه المرة كان خطرًا ضخمًا … خطرًا من صُنْع الطبيعة القاسية التي لا ترحم، خَطرًا لا يمكن مواجهته لا بالشجاعة، ولا بالتفكير … فهناك «محب» و«نوسة» و«نبيل» تحت رحمة العاصفة، و«عم سالم» العجوز تحت رحمة الأمواج، و«عاطف» و«زنجر» مختفيان لا أحد يعرف مكانهما.

برغم هذا كان ذهنه يعمل، وكان الحل هو البحث عن مساعدةٍ خارجيةٍ … نعم يجب العثور فورًا على رجال خفر السواحل، هم وحدهم الذين يُمكن أن يساعدوه … ولكن كيف الوصول إليهم؟

تَذكَّر جهاز «الوكي توكي» الذي أعطاه الضابط «أحمد» إلى «نوسة» … أهو معها … أم تركته في الفيلا؟ … وصاح رافعًا صوته حتى تسمعه «لوزة»: أين «الوكي توكي» الذي كان مع «نوسة»؟ هل أخذته معها إلى القارب؟

لوزة: لا أدري … ولكني لا أذكر أنني رأيته معها.

تختخ: هَيَّا بنا.

أخذا يجريان في اتجاه الفيلا، والرياح تدفعهما إلى الخلف … كان صراعًا من أجل العودة … وأخذا يقفان ويقعان ويجريان، وقد اندفعت الرمال تلفُّ وتدور وتضرب كل ما تُواجهه كأنها سياطٌ، وعندما وصلا إلى الفيلا وقد أنهكهما التعب، كان في انتظارهما مفاجأةٌ قاسية … كانت الرياح قد أغلقت باب الفيلا، وكانت المَفاتيح بالداخل.

أحسَّ «تختخ» باليأس يتسرَّب إلى قلبه؛ إن كل الظروف تعمل ضده. وأمسك بيده «لوزة» ودار حول الفيلا حتى توقَّفا خلف الجدار الأيمن حيث يُمكن اتِّقاء الريح، وفي السكون الذي وفَّرَه الجدار وقفا ولم يتكلما كلمةً واحدة؛ صديقان صغيران يواجهان الطبيعة والظروف القاسية بدون أدنى أملٍ في النجدة أو المساعدة.

الأسود الذكي مرة أخرى

تحوَّل النهار إلى ليلٍ، ولم يعد من الممكن رؤية شيءٍ على الإطلاق. وظلَّ «تختخ» و«لوزة» واقفين بجوار الجدار، وأحسَّ «تختخ» بالندم الشديد، لقد ترك أدواته الدقيقة في الداخل؛ الأدوات التي يُمكن بها أن يفتح أي بابٍ أو أي نافذةٍ، لقد أصبحوا جميعًا في مصيدة الطبيعة تعبث بهم كما تشاء … وفجأة خُيِّلَ «للوزة» أنها ترى شَبحًا في ظلام الرمال، شيئًا يتحرك ثم يقترب … وضغطتْ على يد «تختخ» فمالَ عليها وقالت له: هناك شبحٌ قريبٌ!

واقترب الشبح، وعندما أصبح بجوارهما عرفا فيه على الفور «نبيل» في ملابس الغوص وبيده حربة الصيد.

لم يكن هناك وقتٌ للشرح، أخذ «تختخ» بندقية الصيد من يد «نبيل» واتجه فورًا إلى إحدى نوافذ الفيلا، وأطلق منها حربة الصيد القوية حطَّمت ثلاث قطع من خشب النافذة، ثم ضرب الزجاج بطرف البندقية، ومدَّ يده وفتح النافذة، وقفز إلى الداخل … أدار موتور الكهرباء؛ فشعَّ الضوء في المكان، ودخلت «لوزة» وخلفها «نبيل» الذي أسرع بتغيير ثيابه … كان يشعر أنه هو المُخطئ؛ فقد تسرَّع في البحث عن الكنز، وعَرَّض حياة «نوسة» و«محب» لخطر الموت … فمَن الذي يستطيع إنقاذهم الآن في هذه العاصفة الهوجاء؟ وفي هذا الوقت كان «تختخ» يبحث عن جهاز «الوكي توكي» في كل مكانٍ، ولم يكن موجودًا، فأين أخفته «نوسة»؟ وفجأة تذكَّر غياب «عاطف» المفاجئ، فهل أخذه «عاطف» معه؟

لم يكن هناك إلا هذا الاستنتاج؛ فقد أكدت «لوزة» أنها لم تر الجهاز في يد «نوسة» في أثناء ذهابهم إلى الشاطئ، ومعنى هذا أن الجهاز كان في الفيلا؛ فإما أنَّه سُرِقَ — وليس هناك دليلٌ على هذا — وإمَّا أنه مع «عاطف»، وهذا هو الأقرب إلى الصواب.

جلس الثلاثة صامتين، كان الموقف خطيرًا، ولا حديث يُمكن أن يحلَّ شيئًا، وغرق كل منهم في خواطره، ومضت ساعات والعاصفة ما تزال تُزمجر، وهم جالسون لا يفعلون

شيئًا، لم يكن في إمكانهم عمل شيءٍ — أي شيءٍ — ونظر «تختخ» إلى ساعته، كانت قد تجاوزت الخامسة بعد الظهر، ومعنى هذا أنهم قضوا نحو سبع ساعاتٍ جالسين. وكانت «لوزة» قد نامت وهي جالسة في مكانها، وكان «نبيل» يتجوَّل في الفيلا، وكلَّما حاول فتح الباب دفعته الرياح المخيفة إلى الداخل، وفي وسط هذا اليأس المخيف سمع «تختخ» صوتًا لا يمكن أن يُخطئه ... نعم ... هذا صوت نباح «زنجر» يأتي من بعيدٍ.

وقفز «تختخ» من مكانه صائحًا: «زنجر»!

واستيقظت «لوزة» على الصوت، وأخذت تنظر حولها في ذهولٍ، وتذكَّرت كل شيءٍ، وهي ترى «تختخ» يجري إلى الباب، قالت: ماذا حدث؟

ردَّ «تختخ»: «زنجر» ... إنَّه قريبٌ من الفيلا!

وأسرع الثلاثة إلى الباب ... فتحوه، وقاوموا عنف الرياح الداخلة، وأخذوا يستمعون. كان نباح «زنجر» قريبًا منهم ... ثم ظهر شبحه الأسود في مدخل الباب، واندفع داخلًا يُزمجِر ... وأغلق «تختخ» الباب وهو يقول: «زنجر» ... أين عاطف؟

أخذ «زنجر» ينبح في حزنٍ، و«تختخ» يُهدِّئه حتى استكان الكلب مكانه، وأسرع «تختخ» يحضر له طبقًا من الماء، أخذه يَلْعَقه مسرعًا ... كان غايةً في العطش ... ولم يكد ينتهي من الشرب، حتى اندفع إلى الباب ... قال «تختخ»: انتظراني هنا، سأذهب وحدي معه.

خرج «تختخ» خلف «زنجر»، كانت الريح شديدةً حتى إنها طرحته أرضًا في لحظة خروجه، ولكنه تمالك نفسه، وانحنى، وأخذ يسير خلف «زنجر»، وكان المساء قد هبط، واشتدت الظلمة، حتى لم يعد هناك شيءٌ يمكن رؤيته على الإطلاق، ولم يكن أمام «تختخ» ما يُرشده لكي يتبع «زنجر» إلا صوت زمجرته؛ زمجرة الكلب الأسود الذي تحوَّل إلى كتلةٍ من الظلام في وسط الظلام.

كان «تختخ» يقوم ويقع وهو يتبع كلبه الأمين. كان هدفه أن يعرف أين «عاطف»، وأن يحصل على جهاز «الوكي توكي» لكي يتحدث إلى رجال خفر السواحل ... إنهم الأمل الوحيد؛ لإنقاذ «نوسة» و«محب» إذا كانا مازالا على قيد الحياة.

ظلَّ «تختخ» يزحف، ويقوم ويقع خلف «زنجر» الذكي الذي كان يُحافظ على المسافة بينه وبين «تختخ» مُطْلِقًا زمجرته بين لحظةٍ وأخرى. وسارا نحو ساعةٍ لم يقطعا فيها أكثر من ثلاثة كيلومترات عندما توقفَت الزمجرة لحظات. وخُيِّل إلى «تختخ» أنَّه يسمع صوت أنينٍ صادرٍ من قريب.

أخذ «زنجر» يزمجر في مكانه حتى اقترب «تختخ» وسمع صوت «عاطف» يصيح: من أنت؟ هل أنت «تختخ»؟

ردَّ «تختخ»: نعم يا «عاطف»!

عاطف: لقد سقطتُ وأُصبتُ بالْتواءٍ شديدٍ في قدمي ... إنني لا أستطيع الحركة!

تختخ: لا تخشَ شيئًا ... ولكن أين جهاز «الوكي توكي» هل هو معك؟

عاطف: نعم ... كان معي!

تختخ: ماذا تقصد بـ «كان» معي؟

عاطف: لقد سقط منِّي عندما وقعت، ولا أدري أين ذهب؟

اقترب «تختخ» من «عاطف»، وتشابكت يداهما في سلامٍ حَارٍّ برغم الظروف، كان كل منهما سعيدًا أن وجد صديقه.

أخذ الاثنان يبحثان حولهما عن جهاز «الوكي توكي» كان «تختخ» يعتقد أنه المُنقِذ الوحيد لهم جميعًا في هذه اللحظة. وكأنما أحسَّ «زنجر» أن صديقيه يبحثان عن شيءٍ، فاشترك معهما في البحث. وكان أسرع منهما في العثور على الجهاز الصغير.

كانت فرحة «تختخ» بالعثور على الجهاز لا تُقَدَّر. وقرَّر أن يعود بـ «عاطف» أولًا إلى الفيلا لإسعافه، ثم يتصل برجال خفر السواحل، خاصة أن الجهاز الصغير كان قد امتلأ بالرمال وفي حاجةٍ إلى تنظيفٍ.

استند «عاطف» على كتف «تختخ» وأخذا يترنحان معًا في طريق العودة، ولو لم يكن «زنجر» معهما لما تمكنا من معرفة طريق الفيلا مُطلقًا ... ولكن في وجود «زنجر» وبأنفه الحسَّاس استطاعا — في نحو ساعتين — أن يصلا إلى الفيلا في الظلام الحالك، وفي ظروف ثورة الطبيعة القاسية.

كان منظر «عاطف» مثيرًا للألم؛ فقد كانت الرمال تغطِّي جسده كله، وقد بَدَا عليه الإعياءُ، وصاحت «لوزة» عندما رأت شقيقها بهذه الحال، ولكن «تختخ» كان مشغولًا بتنظيف الجهاز الصغير الذي علَّق عليه كل آمالهم. وعندما انتهى من تنظيفه كان قلبه يَدُقُّ بعنفٍ؛ هل يتحدث الجهاز؟ وعندما أدار مفتاح التشغيل، وارتفع أزيز «الوكي توكي» رَقصَ قلبُه ... وسرعان ما ضغط على جهاز الإرسال وهو يقول: خفر السواحل ... خفر السواحل ... نُريد الحديث إلى المُلازم «أحمد»! أدار مفتاح الاستماع ... وكم كانت فرحته عندما سمع صوتًا خشنًا يُجيب: خفر السواحل تتحدَّث ... مَن الذي يُريد الحديث مع الملازم «أحمد»؟

تختخ: إننا مجموعة من الأصدقاء نُقيم في فيلا صغيرة عند الكيلو ١٠١ من الشاطئ الشمالي الغربي ... كان الملازم قد زارنا.

الصوت: الملازم «أحمد» يتحدَّث إليكم.

تختخ: إنني صديقٌ للفتاة الصغيرة التي قابلتَها في الفيلا ... إننا مُعرَّضون لخطرٍ جسيمٍ، ونطلب مساعدتكم.

ولدهشة «تختخ» سمع الضابط «أحمد» يقول له: إنكم فعلًا معرَّضون لخطرٍ جسيمٍ، لقد رصدنا تحركات المهرِّبين، لقد انتهزوا فرصة العاصفة، واقتربوا من الكيلو ١٠١، وسوف يُنزلون سمومهم المهربة عند الشاطئ أمام الفيلا تمامًا ... ومن المتوقَّع أن تحدث معركةٌ!

وبدلًا من فرحته صاح «تختخ» في الجهاز: إن لنا صديقين معرَّضين لخطر الموت، لقد ركبا قاربًا في الصباح وفاجأتهما العاصفةُ، وحتى الآن لم يعودا.

الضابط: لقد شاهدنا هذا القارب، وهناك رجلٌ عجوزٌ كان يعوم خلفه، وقد لحق بالقارب في الوقت المناسب قبل أن يَجرفه التيار إلى داخل البحر، واستطاع أن يَجْنَحَ به على الشاطئ ...

صاح «تختخ»: عظيمٌ ... عظيمٌ ... «عم سالم» أنقذ «نوسة» و«محب». وسمع صوت الضابط يقول: ولكنهم اختفوا جميعًا بعد لحظاتٍ من وصولهم إلى الشاطئ، ولا ندري ماذا حدث لهم؟!

عاد قلبُ «تختخ» يَخْفِقُ بالألم وقال: لماذا لم تتدخَّلوا لإنقاذهم؟

الضابط: لم يكن هذا ممكنًا، وإلا كشفنا للمهربين عن مكاننا، ولكن لا تخافوا، إننا نعرف أين رَسَا القاربُ، وسوف نُساعدكم في العثور عليهما بعد الانتهاء من ضبط المهربين.

تختخ: شكرًا لكَ يا حَضْرة الضابط.

الضابط: ولكن لي عندكم خدمة ... يجب أن تظلُّوا يقظين حتى قرب الفجر ... إننا نتوقع من المهربين أن يبدءوا إنزال سمومهم قرب الفجر، ولا نريد الاقتراب من المكان حتى لا يتراجعوا، أرجو أن تراقبوهم من خلف زجاج النوافذ، أو من على سطح الفيلا، وعند ظهورهم حدِّثني في «الوكي توكي»، إننا لا نستطيع أن نراهم من مكاننا. إن هذه خدمةٌ عظيمة، وسوف نُساعدُكم في العثور على أصدقائكم الثلاثة.

معركة النهاية

ساد جوٌّ من الفرح المشوب بالحذر داخل الفيلا؛ لقد تحسَّنَ الموقف كثيرًا عن ذي قَبْل؛ لقد عرفوا أن أصدقاءهم الثلاثة: «محب» و«نوسة» و«عم سالم» لم يَغرقوا، وإذا كانوا قد اختفوا عند الشاطئ فربما اختبئوا من العاصفة، وسوف يتمكَّن رجال خفر السواحل من الوصول إليهم، وفي الوقت نفسه هناك احتمالٌ أن تكون العصابة المجهولة قد استطاعت القبض عليهم.

وفجأة سأل «تختخ» «عاطف» بعد أن أعدُّوا الشاي وبعض البسكويت وجلسوا معًا: لم تَقُل لنا يا «عاطف» أين كنتَ؟ ولماذا خرجتَ فجأةً دون إخطارٍ؟

ردَّ «عاطف»: كنتُ أقف بجوار النافذة المفتوحة أتفرَّج على جهاز «الوكي توكي»، وخُيِّل إليَّ أنني شاهدتُ شخصًا يحوم حول الفيلا، ولعله كان يستمع إلى حديثنا عن الصندوق والرسالة، وأردت التأكد قبل أن أخبركم، فخرجت ومعي الجهاز، ووجدت هذا الشخص يبتعد، فأسرعت خلفه لَعَلِّي أعرف أين سيذهب، وقررتُ استخدام الجهاز في إبلاغ رجال خفر السواحل عن هذه العصابة وطلب النجدة، ولكن الرجل اختفى فجأةً خلف حبل الرمال بعد نحو نصف ساعة من السير، وأخذت أبحث عنه بدون جدوى، ثم فاجأتني العاصفة، واسْوَدَّت الدنيا وفقدت الاتجاه، حتى عَثَر عليَّ «زنجر»، وكنتُ قد وقعتُ على الأرض والْتَوتْ قدمي، ولم أستطع السير.

قال «تختخ» مُعاتبًا: ولكني قلتُ لكم جميعًا بعد تهديد العصابة لنا ألا يخرج أحدٌ وحده.

عاطف: إنني آسفٌ جدًّا؛ ولكني تصورت أن في إمكاني معرفة مكان العصابة، وتحديد هذا المكان لرجال خفر السواحل للقبض عليهم.

تختخ: إننا جميعًا مُتْعَبُون ... ولا بدَّ أن نتبادل السهر حتى يظهر هؤلاء المهربون، فَلْنُقسِّم أنفسنا!

ونامتْ «لوزة» و«عاطف»، وأصرَّ «نبيل» على السهر مع «تختخ»، فوقفا خلف زجاج النافذتين المُطِلَّتَين على البحر، ومضتْ ساعتان، وأخذ الجو يصفو تدريجيًّا بعد العاصفة، واختفت الرمال وهدأَ البحر، وبدأت أضواء النجوم البعيدة تظهر ... وقال «نبيل»: من الصعب جدًّا البحث عن الصندوق بواسطة شخصٍ واحدٍ، فمهما بَدَتْ مساحة المكان على الشاطئ صغيرة فهي في البحر واسعة!

تختخ: إنه يحتاج إلى فريق من الغوَّاصين ... الآن ...

وقبل أن يُتمَّ «تختخ» جملته ظهر قارب يَسير مُسرعًا في اتجاه الشاطئ، ثم قفز منه ثلاثة رجال يَحملون المدافع الرشاشة، وعلى الفور ضغط «تختخ» على مفتاح التشغيل في الجهاز وصاح: ملازم «أحمد» ... لقد قفَز المهرِّبون إلى البرِّ ... إنهم ثلاثة وهم يتَّجهون ناحية الفيلا!

الضابط: عظيم ... لقد رأيناهم وهم يُلقون بالمخدرات في البحر ... إنها قريبةٌ من مكانكم جدًّا!

سحَب المهربون القارب ... كان واضحًا أنهم يُحاولون إخفاءه عن العيون، واقتضى منهم ذلك بعض الجهد، فقد سحبوه حتى حبل الرمال، ثم ظهر قارب آخر، ومرة أخرى قفز منه ثلاثة رجالٍ وسحبوا قاربهم، وهمس «نبيل» إنهم مُسَلَّحون.

تختخ: طبعًا ... فهم في مُنتهى الخطورة.

وبعد نحو نصف ساعة انضمَّ الرجال الستة، وكان «تختخ» قد أطفأ أنوار الفيلا عند ظهور أول مجموعة من المهربين ... وبدا الموقف خطيرًا؛ فقد كان الرجال المسلَّحون يتجهون ناحية الفيلا، وقد أشهروا بنادقهم ورشاشاتهم، وقبل أن يصلوا إلى منتصف المسافة سُمِعَ في الصمت صوت مُكبِّر للصوت يقول: قِفُوا في أماكنكم ... وألقوا أسلحتكم!

أخذ الرجال يُطلقُون مدافعهم وبنادقهم في كل اتجاهٍ، وقد انبطحوا على الأرض. وعاد المكبِّرُ يؤكد: لا فائدة من المقاومة.

واتجه أحد الرجال مسرعًا في اتجاه الفيلا، ولم يتردَّد «نبيل»، أخرج بندقية الصيد، وأطلق سهمها القوي فأصاب ساق الرجل الذي صرخَ ثم سقط على الأرض، وتَفَرَّق بقية المهربين، واتجهوا مسرعين إلى حبل الرمال ... وظهر رجال خفر السواحل من أماكن متفرقة، وبدأت معركةٌ شرسة بالرشاشات ... وأُصِيب ثلاثة من المهرِّبين، وفرَّ اثنان خلف حبل الرمال.

وشاهد «تختخ» و«نبيل» على ضوء الفجر رجال القوة وهم يُطاردون المهربين، ثم ظهر ضابطٌ شابٌّ ومعه بعض رجاله الذين أحاطوا بالجرحى من المُهرِّبين، وخرج «تختخ» و«نبيل» واستقبلا الضابط الذي بَدَتْ عليه علامات السعادة؛ فقد استطاع أن يُحاصِر المُهربين، وأن يقضيَ عليهم وقال: صباح الخير … أشكركما جدًّا، لقد قدمتُما مساعدةً عظيمة لنا!

تختخ: إنَّ خلف هذه الرمال تَكْمُن عصابة أخرى!

بدت الدهشة على وجه الضابط! فعاد «تختخ» يقول: إن لهذا قصةً طويلة سأرويها لك فيما بعد، ولكن من المهم جدًّا استكمال المطارَدة خلف الرمال، وسنأتي معك.

استيقظ «عاطف» و«لوزة» على صوت المعركة، وانضمَّ الجميع ومعهم «زنجر» إلى قوة خفر السواحل … ومضوا سريعًا.

استطاع «زنجر» أن يحدد الطريق إلى مكان العصابة عن طريق البئر والنفق، وسار الجميع فيه يتقدَّمهم جنود خفر السواحل ببنادقهم الرشاشة، ثم صعدوا إلى سطح الأرض، ووصلوا إلى الطريق المُغطَّى بالبوص والأعشاب البريَّة، وعندما انحرفُوا إلى الساحة الواسعة دَوَّت طلقات الرصاص. كان رجال خفر السواحل الذين كانوا يُطاردون المهربين قد حاصروا المكان من ناحيةٍ، وحاصره رجال الضابط «أحمد» من ناحيةٍ أخرى، وبدتْ في وسط الساحة الواسعة مجموعة من المباني الحجرية، ثم ظهرت وجوهٌ غريبة؛ وجوهٌ ليست مصريةً، وجوهٌ ذات عيونٍ زرقٍ ولون أحمر، وبَدَتِ الدهشة على وجه الضابط «أحمد».

وأخذ «تختخ» يروي له بسرعةٍ قصة السفينة «النجمة الخضراء» وحكاية الكنز الذي يُحاول هؤلاء الرجال العثور عليه.

وسقط الجميع في قبضة الجنود، وأسرع «زنجر» وخلفه «تختخ» و«عاطف» إلى أحد المباني، وفتحوا الباب، ووجدوا «عم سالم» و«نوسة» و«محب» وقد أُحْكِمَ وَثاقَهم، وبدا عليهم الإرهاق والتعب.

بعد ساعات من هذه الأحداث الرهيبة المتلاحقة كان المغامرون الخمسة ومعهم «عم سالم» يقفون على شاطئ البحر يراقبون رجال خفر السواحل، ومعهم الغوَّاصون وهم ينتشلون المخدرات التي وضعها المهرِّبون في قاع البحر؛ لتبقى بضعة أيامٍ ثم ينقلونها في فرصةٍ أخرى، وكان الضابط «أحمد» قد قبض على أفراد العصابة المجهولة … لم يكن بينهم القبطان «روجيه»، لقد مات «روجيه» منذ سنوات، ولكن «كوتزيني» الضابط الثاني هو

الذي كان يقوم بالبحث عن الكنز، وكان على علاقةٍ بمُهرِّبي المخدرات، لقد اعترف بكل شيءٍ.

وكانت مفاجأةً قاسية له عندما علم أن الجهود التي بذلها خلال هذه السنوات لم تكن ذات قيمةٍ ... فالكنز لم يغرق مع السفينة كما تصوَّر ... لقد غرق بعيدًا عنها ... ولو قضى بقية عمره يبحث لما وجد شيئًا.

قال «محب»: إنها كميةٌ ضخمةٌ من المخدِّرات!

الضابط «أحمد»: هكذا عادة مهربي البحر ... إنهم يملئون سفينة بالمخدرات من خارج البلاد، ثم يفرغونها في القوارب التي تقرب من الشاطئ، ثم يلقون بها إلى قاع البحر ويتركونها فترة، بالطبع هم يضعونها في صفائح محكمة الإغلاق، ثم يعودون إليها عندما يَتصوَّرون أن رقابتنا على الشاطئ قد هدأت.

أخذت صفائح المخدرات تتكوَّم على الشاطئ، كان «نبيل» في ملابس الغوص يساعد رجال السواحل في عملهم، كان سعيدًا جدًّا لأنه يشترك في مهمةٍ حقيقية، وفي الوقت نفسه يبحث عن كنز عائلته ... وكان المغامرون سعداء أن تنتهي المغامرة هذه النهاية السعيدة ... وقالت «لوزة»: إنها ليست مغامرةً واحدةً ... إنهما مغامرتان: «حبل الرمال»، و«النجمة الخضراء».

عاطف: والسبب النقود والذهب!

تختخ: وراء كل مغامرةٍ وكل لغزٍ أطماع في هذا الشيء الذي يتصارع حوله الجميع؛ النقود!

نوسة: ولكن النقود ليست كل شيءٍ في هذا العالم.

تختخ: بالتأكيد لا ... هناك ما هو أهم من النقود: الشرف، والفضيلة، والحب، وهي القيم التي يعيش عليها البشر.

عاطف: لقد تحوَّلنا من مغامرين إلى فلاسفةٍ!

وفجأةً صاح أحد الرجال: هناك صندوق ثقيلٌ ... إننا نُحاول انتشاله!

أسرع الجميع بدون وعيٍ إلى الماء، وغاص الرجال وغابوا لحظات، ثم صعدوا ومعهم «نبيل» وفي أيديهم صندوق من الحديد ... وضحك «عم سالم» لأول مرةٍ وقال: صندوق الذهب!

واقترب الرجال من الشاطئ، وامتدت الأيدي إلى الصندوق الثقيل، واستقرَّ أخيرًا على الشاطئ، بعد أكثر من أربعين عامًا في قاع البحر.

قال الضابط «أحمد»: برغم أنني أُصدِّق قصَّتكم؛ فإنني مُضطرٌّ حسب أصول العمل أن أُبقي هذا الصندوق في خزينة خفر السواحل وفي حراستنا حتى يحضر والدك يا أخي «نبيل» لإثبات ملكيته له.

قال «نبيل» وهو يبتسم: بالطبع ... إنني حتى أخشى فتحه!

والتفَّ الجميع حول «نبيل» يهنئونه ... واتفقوا على قضاء بضعة أيامٍ هادئة، بعد أيام المغامرة العاصفة.


هنــداوي